الفصل الثاني

المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس

تمهيد

استطاع عبد الرحمٰن الداخل أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس سنة 138هـ، وبدأ عصرالخلافة الأموية في الأندلس سنة 316هـ/ 929م عندما أعلنها عبد الرحمٰن الناصر، الذي اشتهر بالحزم والذكاء والعدل، والعقل والشجاعة حبه للإصلاح وحرصه عليه.

ووحد الأندلس بالقوة والسياسة وأعاد وحدتها وقوتها ومكانتها.

حارب المتمردين من حكام الشمال الإسباني وأخضعهم لشروطه.

وكان سبب إعلانه الخلافة في الأندلس ضعف الخلافة العباسية، وظهور الدولة العُبيدية في الشمال الإفريقي، فأعلن الخلافة، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله[1]. وفي عام 400هـ/ 1009م بدأ ظهور عصر الطوائف في الأندلس، الذي دام حتى عام 484هـ/ 1091.

وكان ذلك بسبب سقوط الخلافة الأموية التي نخرتها الأطماع والأحقاد والصراعات الداخلية على الحكم، وسعي بعض الشخصيات للمجد الشخصي متناسياً في ذلك مصالح الأمة وضرورة وحدتها لتقف صفاً واحداً أمام أعدائها.

لقد انقسمت الأندلس إلى دويلات واتخذ حكامها ألقابهم تبعاً لحجم دويلاتهم فأحدهم: ملك أو أمير، والٍ أو قاض.

ونظراً لاختلاف القوى والرياسات، فقد أخذ القوي يبطش بالأضعف، والأضعف يدرأ الخطر بالتحالف مع جاره القوي، وأحياناً يستنجد بأمراء النصارى مقابل ثمن باهظ.

وتكونت من هذه الدويلات العديدة أربع دول رئيسية:

1 - في جنوب الأندلس، حكم الأدارسة الإفريقيون أو بنو حمود أصحاب مالقة، وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة، وألبيرة وجيان وأستجة، فضلاً عن حكمهم مليلة وطنجة وسبتة في شمال المغرب.

---

(1) انظر: في تاريخ المغرب الأندلس، د. أحمد العبادي، ص(168 إلى 170).

2 - بنو عباد أمراء إشبيلية، أقوى ملوك الطوائف، ومن حلفائهم بنو جهور في قرطبة، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب وغرب الأندلس.

3 - بنو ذي النون أمراء طليطلة، الذين حكموا أواسط إسبانيا، والذين وقفوا في وجه بني عباد، وكلفهم ذلك دفع جزية لملك قشتالة النصراني التماساً لعونه ضد خصومهم.

4 - بنو عامر في بلنسية ومرسية الذين حكموا في شرقي إسبانيا، وطبقاً لظروفهم، فقد كانوا يحالفون الأدارسة تارة أو بني عباد، أو بني ذي النون تارة أخرى... بسط بنو عامر نفوذهم على الثغور الممتدة من مرية حتى مصب نهر أبرة سنة 1051م[1].

(1) انظر: الزلاقة، شوقي أبو خليل، ص(12).

المبحث الأول

الصراع بين طليطلة وقرطبة

عندما تولى المأمون يحيى بن ذي النون عام 1043م إمارة طليطلة، اغتنم عون حليفه القوي عبد العزيز بن أبي عامر، واستأجر الفرسان النصارى من القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة، فتدخل بنو عباد أصحاب إشبيلية، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس للوقوف ضد صاحب طليطلة الذي كان يهددهم جميعاً، وسار أمراء لبلة وولبة وجزيرة شلطيش إلى الانضمام إلى الحلف الذي تزعمه صاحب لبلة عبد العزيز اليحصبي ليعقد محالفة مع قرطبة.

تحرك الجميع تطبيقاً لهذا التحالف لإنجاد قرطبة، فانتهز ابن عباد أمير إشبيلية هذه الفرصة واكتفى بإرسال خمسمائة فارس إلى ابن جهور، وزحف في جيش قوي على لبلة، وولبة وجزيرة شلطيش وأكسونية واستولى عليها، ثم فتح قرمونة سنة 1053م. طالت الحرب بين طليطلة وقرطبة، ودامت أعواماً، وكانت سجالاً، وأراد المأمون صاحب طليطلة حسم الموقف، فأوقع بقوات قرطبة وحليفاتها هزيمة شديدة، واستطاع الوصول إلى قرطبة فحاصرها، فبادرت إشبيلية إلى إغاثتها، فأرسل ابن عباد ابنه محمداً على رأس جيش قوي فيه وزيره أبو بكر محمد بن عمار الموصوف برجاحة عقله وشدة ذكاءه وزودهما بخطة وأوامر سرية خاصة.

واستطاع جيش ابن عباد أن يفك الحصار عن قرطبة واضطر الطليطليون لرفع الحصار وارتدوا عنها، وخرج القرطبيون ليطاردوا أعداءهم فأتموا بذلك هزيمة الطليطليين[1].

ونفذت خطة ابن عباد السرية وكان محتواها دخول قرطبة عندما يخرج منها أهلها خلف الطليطليين، ودخلتها قوات ابن عباد دون معارضة، واحتلت مراكزها الحصينة قبل أن يفطن القرطبيون إلى أن من جاء لنصرتهم غدر بهم، وبذلك سقطت

---

(1) انظر: الزلاقة، ص(14).

دولة بني جهور في قرطبة ولم يمض على قيامها ثلاثون عاماً في محنة محزنة وخيانة فظيعة، وأصبح ابن عباد أمير إشبيلية أقوى أمراء الأندلس المسلمة، تخوف المأمون أمير طليطلة من قوة ابن عباد أمير إشبيلية التي نمت نمواً سريعاً وبخاصة بعد أن حالفه العامريون أمراء قسطلون ومربيطر وشاطبة المرية ودانية، فحاول التحالف مع صهره زوج ابنته عبد الملك المظفر حاكم بلنسية الذي رفض ذلك محتجاً بأن وقوف العامريين إلى جانب إشبيلية يجعل إقدامه على هذا التحالف خطراً على بلنسية، فما كان من المأمون إلا أن عقد حلفاً مع فرديناند الأول صاحب قشتالة.

وهجمت القوات المشتركة المتحالفة «قوات المأمون وفرديناند الأول» على بلنسية، فسقطت ولاية بلنسية كلها في يد المأمون في تشرين الأول سنة 1065م عاد بعدها إلى طليطلة ليجهز قواته لقتال ابن عباد، وحال بينه وبين ما أراد وفاة فرديناند الأول، ونشوب حرب ضروس بين أولاده، فنقض المأمون عهده مع قشتالة، وامتنع عن دفع الجزية، مما أدى إلى حرمانه من معونة النصارى، وهي المعونة التي لم يستطع أن يحارب أمير إشبيلية بدونها، فلما تم أمر الحكم لسانشو ابن فرديناند سنة 1070م، هرب أخوه ألفونسو إلى المأمون صاحب طليطلة والتجأ أخوه الثاني جارسية إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، وفي سنة 461هـ/ 1069م توفي المعتضد بن عباد أمير إشبيلية، فخلفه ابنه الملقب بالمعتمد على الله، ولم يكن أمام الأمير الجديد ما يخشاه إلا أمير طليطلة الذي ملك بلنسية في الوقت نفسه، أما بقية ملوك الطوائف فقد انكسرت شوكتها وتزعزع كيانها في حروبها الداخلية ومن غزوات النصارى المتتابعة عليها.

واستطاع المأمون حاكم طليطلة أن يتوسع ويحقق انتصارات واسعة سنة 1073م على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى، وبهذا أصبح الأمير الأقوى الذي يسيطر على أواسط إسبانيا كلها، وبخاصة بعد أن فاز ألفونسو بحكم قشتالة بعد وفاة «شانجة» وتحالف مع المأمون الذي رعاه وحماه عند محنته وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق.

وأصبح أمير إشبيلية في خوف من توسّع أمير طليطلة الذي فاجأ المعتمد بتحالفه مع بني هود أصحاب سرقسطة وبني الأفطس أصحاب بطليوس وهاجم خصمه من ثلاث جهات لكي يحكم تسديد الضربة إلى قرطبة، فسقطت دون مقاومة تذكر سنة 468هـ، ولكن المأمون توفي بعد دخولها بأيام قلائل فرجع جنده عنها إلى طليطلة،

واسترد ابن عباد قرطبة، وبقيت إشبيلية تحت ابن عباد حتى استولى عليها المرابطون سنة 474هـ.

وأرسل ابن عباد سفيره ووزيره البارع ابن عمار إلى عاصمة قشتالة يومئذٍ وتحالف مع ألفونسوا، وتعهد بها ملك قشتالة بمعاونة أمير إشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المسلمين، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، وتعهد بألا يتعرض مشروع ألفونسو في افتتاح طليطلة، وهكذا ضحى ابن عباد بمعقل المسلمين إسبانية المسلمة، لكي يفوز ببسط سيادته على الإمارات التي لم تخضع له بعد، وهي إمارات غرناطة وبطليموس وسرقسطة[1].

واستفاد ألفونسو من هذه الاتفاقية وأعلنها حرباً لا هوادة فيها على طليطلة التي حمته من مطاردة أخيه سانشو ونسي الأمير الطموح للتوسع كل عهوده ومواثيقه وشرع في غدره بمن أحسن إليه.

وتحرك المعتمد بن عباد بجيشه نحو غرناطة ليضمها إلى سلطانه وكان حاكمها عبد الله بلكين بن باديس، وكان ابن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليه يوماً فيوماً من شانسو الأول ملك أرجون، فلم يستطع إنجاد طليطلة سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو، ولكن ألفونسو الذي كان قد أثخن في ولاية طليطلة، حتى صيرها قفراً بلقعاً، شعر باقتراب المنصور، فانسحب ولكنه كرر الرجعة في العام التالي فعاث في بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى، وزحف المعتمد على بطليوس، وبهذا استطاع أن يحول دون معاونة بني الأفطس لطليطلة حيث القادر بن ذي النون، ولم يستطع أمير سرقسطة من بني هود «المؤتمن» معاونة القادر معاونة قوية خشية أن تقع سرقسطة ذاتها فريسة لابن عباد أو النصارى، وهو في جهاد ضد أرجون وبرشلونة، واستمرت الحرب أعواماً، وألفونسو يفسد في بلاد المسلمين «طليطلة» ومن حولها فساداً.

وفي السابع والعشرين من المحرم سنة 478 هـ الخامس والعشرين من أيار «مايو» سنة 1085م استطاع أن يدخل طليطلة «عاصمة القوط القديمة» ودخلت طليطلة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عاماً، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانية النصرانية.

---

(1) انظر: الزلاقة، ص(17).

وهكذا انتهت دولة ذي النون في طليطلة لتستمر في بلنسية[1].

تأثر المسلمون بسقوط طليطلة تأثراً عميقاً على كافة الساحة الإسلامية في الأندلس، وتفجرت قريحة الشعراء في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد، والتحذير من تفاقم الخطر، ومما قيل في ذلك قول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن عسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حشو مطيتكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سفط[2]

ومن ذلك أيضاً:

يا أهل أندلس ردوا المعمار فما ... في العرف عارية إلى مردات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات[3]

لقد كانت روما تقف بكل ما تملك من قوة معنوية ومادية خلف ألفونسو وجنوده للقضاء على المسلمين، وأسبغوا على قتال المسلمين صفة الحرب الصليبية المقدسة وأصبح البابوات لهم دور في توجيهها.

وندم المعتمد بن عباد على فعلته خصوصاً عندما رأى ألفونسو يتوسع في ضم ممالك المسلمين إليه، وأيقن أن الدائرة عليه قادمة، واجتمع أمراء المسلمين عندما رأوا أن شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم فاتحدوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لفتوح ألفونسو وإذا كانت قواتهم مجتمعة لا تكفي لرد عدوانه، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالمرابطين في إفريقية واستدعائهم إلى الأندلس، علماً بأن ملوك الأندلس كانت ترهب الفرنج بإظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين، وكان له شهرة تطايرت في الآفاق لما حققه من ضم دول إلى دولته وقضائه عليها، اشتهر بين الناس أن لأبطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس وطعنات تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم[4].

(1) انظر: الزلاقة، ص(18).
(2) وفيات الأعيان (ج5/ 28).
(3) انظر: الزلاقة، ص(19).
(4) وفيات الأعيان (ج7/ 114).

المبحث الثاني

أسباب ضعف المسلمين في الأندلس وقوة النصارى

أولاً: ضعف العقيدة الإسلامية والانحراف عن المنهج الرباني وهذا السبب هو الأساسي.

ثانياً: موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة، واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حين تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه، فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 57].

وقوله عز وجل: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: 28].

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: 22].

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبراء، فقال: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**»[1].

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه - ﷻ -: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»[2].

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (ج4/ 286).

(2) البخاري، فتح الباري، كتاب الرقائق، باب (38 رقم 6501).

فحين تجد أن المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، نراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة، وللإسلام وأهله، ولكنك لا تجني من الشوك العنب[1].

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى إن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام. فهل يؤمن الذئب على الغنم!![2].

ثالثاً: الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد، إن الأمة التي تركن إلى الدعة والترف واللهو، هي غالبة قاهرة يجب أن تُعد غير مستحقة للريادة والقيادة، فما بالك بأمة تغرق في اللهو والدعة والترف، وهي لا تدري إن كان العدو قد كسر حصنها واجتاحها، أم إنه لا يزال ينتظر تلك اللحظات؟!.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: «العرب هُزموا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح، والاسترسال بالشهوات»[3].

إن المؤرخين رأوا: «أن الأندلسيين ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، ناموا في ظل ظليل من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، وغدا التهتك والخلاعة والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلي من أبرز المميزات أيام الاضمحلال لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وإن شعباً يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد»[4].

دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور «الله أكبر» وبقوا فيها زمناً، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمٰن الداخل عندما قُدم إليه الخمر ليشرب قال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه»[5].

---

(1) انظر: تاريخ الأندلس، ص(390)، د. عبد الرحمٰن الحجي.
(2) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، ص(24).
(3) مصرع غرناطة، ص(93).
(4) مصرع غرناطة، ص(120).
(5) سقوط الأندلس، ص(27).

يقول الدكتور عبد الرحمٰن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: «كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخصية، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حُبَّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم»[1].

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

ووزن العود وهات القدحا راقت الخمرة والورد صحا

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام 456هـ خرج أهلها للقائم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلي:

لبسوا الحديد على الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألواناً
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا[2]

ضعف المسلمون في الأندلس وسلب كثير من ديارهم لما تنافس الولاة والحكام من أجل إسعاد زوجاتهم وجواريهم بالباطل.

وإليك ما فعله المعتمد مع إحدى زوجاته: اشتهت زوجة المعتمد بن عباد أن تمشي في الطين وتحمل القرب فأمر المعتمد بن عباد أن ينشر المسك على الكافور والزعفران وتحمل قرباً من طيب المسك وتخوض فيه تحقيقاً لشهواتها!!

ولكن الله المعز المذل أراد أن تنقلب الأمور على المعتمد، فيؤخذ أسيراً في أغمات وتبقى بناته يغزلن للناس يتكسبن، وفي ذلك يقول المعتمد وهو شاعر مجيد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسوراً
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميراً
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً
من بات بعدك في ملك يسرُ به فإنما بات بالأحلام مغروراً[3]

(1) انظر: تاريخ الأندلس، ص(211).
(2) انظر: النصر والهزيمة، ص(122).
(3) نفح الطيب، (ج4/ 273 - 274).

وصدق الحبيب ﷺ، المؤتي جوامع الكلم إذ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَط الله عليهم ذُلاً، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**»[1].

رابعاً: إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس كان بزوال الخلافة الأموية ونشأ على أثر ذلك عهد السنوات الصعاب، كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحد فأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[2]

وكما قال الآخر:

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم هم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه»[3].

ويقول الدكتور عبد الرحمٰن الحجي عن هؤلاء الحكام: «وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم معه مصالح الأمة، وتُركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف، الذي به كانت الأندلس وحضارته».

---

(1) أخرجه أبو داود، كتاب البيوع، (باب 56، ت/ 54م).
(2) سقوط الأندلس، ص(31).
(3) التاريخ الأندلسي د. عبد الرحمٰن الحجي، ص(325).

خامساً: الاختلاف والتفرق بين المسلمين:

كان الاختلاف والتفرق سمة من سمات عصر ملوك الطوائف، وكان بعضهم يستعدي النصارى على إخوانه ويعقدون مع النصارى عهوداً وأحلافاً ضد إخوانهم في العقيدة، ومن أجل شهوة سلطة تراق على أرض الأندلس دماء المصلين، حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:

ما بال شمل المسلمين مبددُ فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لبيكم وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرّطتم في أميت وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد[1]

ولما سقطت طليطة كان من العجيب أن بعض ملوك الطوائف وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طليطلة وكأن الأمر لا يعنيهم فاغرين أفواههم جبناً وغفلة وتفاهة، بل إن عدداً منهم كان يرتمي على أعتاب ألفونسوا ملك النصارى طالباً عونه أو عارضاً له الخضوع، بذلة تأباها النفوس المسلمة، تغافلوا على أن ألفونسو لا يفرق بين طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية، لكن العجب يزول إذا تذكرنا نزعتهم الأنانية والعصبية[2].

سادساً: تخلي بعض العلماء عن القيام بواجباتهم:

لا شك أن حياة الأمة في حياة علمائها فهم تاجها ومنارتها وهم روحها ومادة حياتها، فكلما كان علماء الأمة ربانيين كان أمر الأمة في طريقه نحو العزة والرفعة والكرامة، وكلما ابتعد العلماء عن الربانية وتثاقلت نفوسهم إلى الأرض وحرصوا على مصالحهم الذاتية خبا نور الأمة، ودب في الأمة الضعف والجهالة.

«فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها»[3].

---

(1) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، ص(33).
(2) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، ص(34).
(3) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، ص(35).

وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم رحمه الله: «ولا يغرنك الفُساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم»[1].

ولا ننسى دور العلماء الربانيين الذين قاموا بجمع شتات الأمة الممزق، وبذلوا وسعهم في ذلك من أمثال أبي الوليد الباجي، وأبي محمد بن حزم، وأبي إسحاق الإلبيري وغيرهم، عليهم رحمة الله وبركاته.

سابعاً: عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي، «فرفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون، ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية، لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال داثرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في باطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنباً يتوب»[2].

لم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة، ولم تنفعهم نصائح العلماء حتى حلت بهم مصيبة وكارثة ألا وهي سقوط طليطلة.

ثامناً: مؤتمرات النصارى ومخططاتهم:

استطاع النصارى أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرنادو ملك قشتالة.

تاسعاً: وحدة كلمة النصارى:

في الوقت الذي كان المسلمون في الأندلس يعانون من التفرق والشتات، كان النصارى في وحدة كلمة وتراص صفٌ في مواجهة أمة الإسلام في الأندلس.

---

(1) مجموع رسائل ابن حزم (ج3/ 173).

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الشنتريني، القسم الثاني، ص(95).

عاشراً: غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عباد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[1].

قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: 14].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخاً مليئاً بالدماء وهتك الأعراض، وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة: 10].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: 120].

لقد استمات النصارى في حربهم للمسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

الحادي عشر: التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»**[2].

وقوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»**[3].

لقد تخاذل ملوك الطوائف عن نصرة من يستحق النصرة، وإليك ما حدث في طليطلة. يقول الدكتور عبد الرحمٰن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف: «قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحَمَوْها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق

(1) سقوط الأندلس، ص(40).

(2) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، رقم (2442)، مع الفتح (ج5/ 116).

(3) البخاري مع الفتح كتاب المظالم رقم (2446 ج5/ 117).

مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد»[1].

فهذه مجموعة من الأسباب التي أدت إلى الحالة التعيسة التي آلت إليها الأندلس. وعندي أن من أعظم الأسباب في خذلان الأمة ابتعادها عن منهج ربها وضياع عقيدتها وتربيتها على الترف والدعة، وترك الجهاد في سبيل الله. ولذلك عندما تربى المرابطون على معاني الجهاد في سبيل الله ومنهج أهل السنة وفقهم الله لإقامة دينه وإعزاز سنة نبيه ونصرة إخوانهم في الدين.

إن الجهاد من أعظم الدروس فلما وجد في الأندلس بقيت الأمة في عزة ومنعة ومهابة، ولما فقد أصبحت الأمة مطمعاً لكل جبار عنيد أو متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. قال رسول الله ﷺ: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد**»[2]. وقال ﷺ: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»[3].

(1) انظر: التاريخ الأندلسي.

(2) الترمذي، باب الإيمان، باب (8) رقم (2616).

(3) البخاري مع الفتح رقم (2792 ج6/ 17).

المبحث الثالث

العالم في زمن ظهور دولة المرابطين

كانت أوروبا يتحكم فيها الإقطاعيون في حالة همجية بعيدة عن التحضر ومعالم الحضارة والمدنية.

وكان العالم الإسلامي مجزأ عند قيام دولة المرابطين، فظهر ملوك الطوائف في بلاد الأندلس، واستطاع السلاجقة أن يطهروا العراق من بني بويه، والعبيديون حكموا مصر، وبنو حماد في المغرب الأوسط، والمعز بن باديس وأحفاده في المهدية.

وتوسع المرابطون وشملت دولتهم أجزاء شاسعة من شمال إفريقية «جزء من الجزائر والريف في المغرب» وضربت جذورها في الصحراء حتى نهر النيجر والسنغال، فرفعوا راية الإسلام في تلك الأماكن البعيدة.

وكان المشرق الإسلامي في ظروف سياسية حرجة وصعبة قاسية حيث أمر الخلافة في بغداد مهتز، والخليفة معرض للخطر، ولا يملك من أمر الخلافة شيئاً وإنما هو رمز تحكم فيه البويهيون، ومن بعدهم السلاجقة، أما العبيديون في مصر فتحالفوا مع الإفرنج من أجل مصالحهم وأطماعهم، فكان أمر المسلمين في غاية الخطورة حتى قيض الله لأهل المشرق نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي الذين قاما بدور عظيم في القضاء على النصارى والعبيدين ودحرهم، وفي هذه الظروف الصعبة والعصيبة أرادت حكمة الله وقدرته أن تخرج دولة المرابطين السنية لتكون سداً منيعاً ضد أطماع النصارى في الأندلس، ولتحمي الشمال الإفريقي من غاراتهم وأطماعهم إنه تدبير العزيز العليم.

لقد أكرم الله تعالى المرابطين وجنودهم بالدفاع والذود عن الإسلام والمسلمين وعن أعراضهم وأموالهم وعقائدهم التي لا تقدر بثمن.

وأعز الله الأمة بهم في زمن عصيب ورفع الله بهم لواء الإسلام في المغرب والأندلس.

واستطاعوا بجهودهم الجهادية أن ينقذوا إخوانهم في الدين من ظلم النصارى

وحقدهم الدفين، ويكبّدوهم هزائم عسكرية أصبحت نبراساً للأمة على مر العصور ومر الدهور.

أولاً: تكالب النصارى على المسلمين وأطماع ألفونسو التوسعية:

بعد سقوط طليطلة بيد ألفونسو، بدا له أن كل شيء ممكن وعمل على توحيد جهود النصارى، واتفقوا على سحق دولة الإسلام في الأندلس، معتقدين أن قدرتهم تكفيهم لأداء هذه المهمة المقدسة لديهم.

وترك النصارى خصوماتهم الداخلية، وتوحدت مدنهم، وكونوا جيشاً ضخماً واحتلوا مدينة «قورية» من بني الأفطس، ووصلوا إلى ضواحي إشبيلية، وأحرقوا قراها وحقولها وسارت فرقة من الفرسان إلى شذونة، ثم اخترقت جزيرة طريف قرب مضيق جبل طارق، كما حاصر القشتاليون بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين الذي وضعهم ألفونسو السادس تحت قيادته قلعة سرقسطة الحصينة التي يضع سقوطها منطقة الأبير «أبرة» في يد النصارى حتماً، وتصبح الشواطىء الإسبانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط عرضة لغاراتهم، يقول المؤرخ يوسف أشباخ: «وأثخن النصارى في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف، ولم يكن يردهم في الحرب أي اعتبار إنساني ما دام الأمر متعلقاً بأعداء الدين، كما يعتقدون، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة، وتلقّى المؤتمن بن هود وعداً لوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين في جنوب الجزيرة، بيد أن النصارى شددوا الضغط على سرقسطة يوماً بعد يوم، وخشي المسلمون سقوط المعقل المنيع، بعد أن أصبحت قواتهم وأحوالهم في حالة يرثى لها، فقد كانت حتماً دون قوى النصارى، فتطلعوا إلى عون من الخارج، فاتجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين المجاهدة في المغرب الأقصى[1].

وأصبح ألفونسو اللعين يضغط على ممالك المسلمين الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية فأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب منه أن يسلم إليه القلاع والحصون المجاورة لحدوده مع تأدية الجزية، وضعف مسلمو الأندلس أمام هذه الضربات الماكرة، وأصبح سقوط الممالك قاب قوسين أو أدنى، وظل حكام الممالك منغمسين بملذاتهم وفسادهم، يحاربون أنفسهم ويحالفون

(1) انظر: الزلاقة، ص(32).

النصارى ضد إخوانهم، ويؤدون لهم الجزية مقابل تركهم على عروشهم التي تزعزعت أمام ضرباتهم، واستخدم ملوك الطوائف المرتزقة من النصارى لحماية أنفسهم بعد أن فقدوا الأمل في شعوبهم ورعاياهم بسبب ظلمهم وجورهم وتعسفهم، وجعل الله بين أمراء الطوائف من التنافس والتدابر والتقاطع والتحاسد والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تصل لهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم[1]، لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي بعدما رأى من أمرائه التخاذل والخيانة حتى كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغيد ودفع الجزية للنصارى، وأصبح بين حاكم مبتز وعدو متربص، فقد ارتقى عرش إسبانيا النصرانية ألفونس السادس بن فرديناند الذي كان يرغب في احتلال الجزيرة الأيبرية وعادت حرب الاسترداد قوية على يده، وقد بدأ أعماله الحربية بمدينة طليطلة فحاصرها سبع سنوات حتى سقطت بيده في 25 أيار 1085م مستهل صفر 478هـ، وقد أحدث سقوطها دوياً هائلاً في العالم الإسلامي الغربي، وبات المسلمون في حال من الضياع التام[2] لا يعرفون كيف يتصرفون وبدأوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونس، وأصبحت مملكة طليطلة خالية من السكان الذين هجروها إلى بطليوس هرباً من الاضطهاد وحفاظاً على دينهم، ورأى ألفونس أن زمام الأندلس أصبح في يده، فضاعف غاراته على جميع البلاد وتساقطت المدن والقرى بين يدي اللعين الحقود وأرسل إلى المتوكل بين الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون، والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، فرد المتوكل بشجاعة ونبل معلناً تحديه، وفي هذه الرسالة معانٍ عميقة وفهم دقيق للموقف الحرج الذي أصبح فيه المسلمون حيث قال المتوكل: «. . . ولو علم - أي ألفونس - إن لله جنوداً أعز بهم كلمة الإسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ وأعزه على الكافرين. . . وأما تعييرك للمسلمين فيما وهي من أحوالهم فالبذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك أي مصاب أذقناك كما كان أبوك تتجرعه. . . وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه»[3].

(1) انظر: أعلام الأعلام، تحقيق د. عبادي، ص(241).

(2) دولة المرابطين، ص(61).

(3) المصدر السابق، ص(62).

وأرسل المتوكل قاضيه العالم الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على حواضر الأندلس يدعو إلى لمِّ الشعث وتوحيد الكلمة، ومدافعة العدو، ولكن مهمة القاضي لم تكلل بالنجاح لأن ضعف الأمراء، وانهيار مقومات الدولة، وتخاذل الشعب فرضت على الحكام استرضاء العدو، عندئذٍ كتب المتوكل إلى الأمير يوسف بن تاشفين[1] يصور له محنة الأندلس ويستنصره[2]، «لما كان نور الهدى - أيدك الله - دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائم، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما عضل الدار، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضي بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبها الإذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطىء القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا الله ويا للمسلمين أيسطوا هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفرُ، ولا يكشف هذه البلية النصر، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامي لما استبيح من الحرم؟، وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي لبس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أعزك الله - بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلاء ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع.

وهي من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليه عدو مشترك

(1) تاريخ ابن الكردبوس ص(88)، عن كتاب دولة المرابطين، ص(62).
(2) د. عدنان، دولة الإسلام في الأندلس ودول الطوائف، ص(91 - 92).

وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركها ركباناً ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله ﷺ إنكم إلى معرفته أهدى، وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتساباً، وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً، عولت على بيانه ووثقت بفصاحة لسانه والسلام»[1].

ثانياً: ألفونس والمعتمد بن عباد

لقد وقع المعتمد بن عباد في أخطاء كثيرة حيث تعاهد مع ألفونس ضد إخوانه المسلمين في طليطلة مقابل أن يسمح له ألفونس بأخذ ممالك ممن حوله إلا أن النصارى كما علمت لا عهود لهم ولا مواثيق، فأراد ألفونس أن يجد مبرراً لضرب الحصار على إشبيلية واحتلال قرطبة، فطلب من المعتمد حصوناً وقرى الموت أحب إليه من تسليمها، ومارس ألفونس مع المعتمد أنواعاً من الإذلال والتجني لتخرج المعتمد عن طوره ويلغي الإتفاقية الهزيلة بين الطرفين ويجد ألفونس والنصارى ما يبرر أفعاله الانتقامية والوحشية.

فطلب ألفونس من المعتمد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم[2] وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودي ابن ساليب لأخذ الجزية، وتجرأ السفير وقل أدبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمعتمد وقال: «لا تعتقدوني بسيطاً لأقبل مثل هذه العملة المزيفة لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدناً»[3] فأخذت المعتمد النخوة الإسلامية وصلب اليهودي، وقتل البعثة، وبذلك يكون ألفونسو قد تحصل على ما يريده وكان ألفونسو متجهاً لحصار قرطبة فلما وصل خبر البثعة أقسم بآلهته ليغزون المعتمد في إشبيلية، وحرك جيوشه نحو غرب الأندلس فدمر كل القرى

(1) دولة المرابطين، ص(63 - 64).
(2) دولة المرابطين ص(63 - 64).
(3) المصدر السابق، ص(66).

والتخوم التي في طريقه نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر ليدمر ويخرب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي، حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته»[1].

ومن هنا أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: «أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين بل الملة الإسلامية، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤسائكم بالأندلس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار وأهتك الأستار، وأقتل الشبان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله تعالى فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، وبلغنا عنك وأنك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدري أكان الجبن يطغى بك أم التكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك فإن غلبتني فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا عليك واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة»[2].

فكان رد يوسف بن تاشفين - رحمه الله - على ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى ما تسمع إن شاء الله تعالى» وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم[3]

وعاد ألفونس المغرور المتكبر إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المعتمد بن عباد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المعتمد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحمل المعتمد هذه الإهانة فرد: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر إليك في مرواح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك»[4].

---

(1) دولة المرابطين ص(66).

(2) دولة المرابطين ص(66).

(3) تاريخ ابن الكردبوس، ص(91).

(4) الرياض المعطار، ص(80) للحميري.

ترك ألفونس إشبيلية وسار نحو سرقسطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيراً، ثم أخذ بلنسية وأعطاها القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق، وهاجم مملكة المرية ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة. كان الخطر على الأندلس شديداً وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ إن ثمانين قشتالياً هزموا أربعمائة من المرية[1].

ثالثاً: اجتماع علماء قرطبة:

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأندلس اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء و لأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المعتمد أن هذا الرأي فيه صواب ونفاذ بصيرة، فجد في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرر أن يطلب النجدة من إخوانه المسلمين، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونس والرضوخ لشروطه، ولكن هذا الرأي لم يجد هوى في نفس المعتمد الذي خلا بابنه الرشيد وكان ولي عهده وقال له: «أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع، ولا يرجى منهم نصرة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طليطلة وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا.

وإن نزل علينا طليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا، ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا وبغضتنا العامة والخاصة،[2] فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أي بني والله لا يسمع عني أبداً إني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنة من على منابر المسلمين مثل ما قامت على غيري، والله خُرز الجمال عندي خير من خُرز الخنازير»[3].

---

(1) تاريخ ابن الكردبوس ص(89)، نقلاً عن دولة المرابطين، ص(66).

(2) دولة المرابطين، ص(68).

(3) المصدر السابق نفسه.

ولما انتشر رأي المعتمد بن عباد في الأندلس حذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا له: «الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد»، وعارض بشدة طلب العون من المرابطين عبد الله بن سكوت والي مالقة الذي كان يرى أن المرابطين أشد خطراً من النصارى، ويجب الاعتماد على القوة الذاتية للأندلسيين[1] فأجابهم المعتمد: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[2] وأضاف: إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الشرين أمر الملثمين»[3].

وقال للذين لاموه على هذا الرأي: يا قوم إني في أمري على حالين: حالة يقين وحالة شك، ولا بد لي من أحدهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليَّ، ويمكن أن لا يفعلا فهذه حالة شك.

وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله، وأن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ حينئذٍ قصر أصحابه عن لومة[4].

ولما عزم على طلب النصرة من المرابطين اتصل المعتمد بالمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة، وطلب منها أن يرسل كل منهما قاضي مدينته حتى يكونوا وفداً إلى المرابطين لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين، وتشكلت البعثة من قاضي قرطبة ابن أدهم، وقاضي بطليموس ابن مقانا وقاضي غرناطة ابن القليعي ومعهم وزير المعتمد أبي بكر بن زيدون، وأسند المعتمد إلى القضاة وعظ الأمير يوسف وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره إبرام العقود، وحملت البعثة معها رسالة مكتوبة من المعتمد إلى الأمير يوسف مؤرخه 479هـ، وهذا نصها: «بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين محيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشاكر

(1) المصدر السابق ص(69).
(2) وفيات الأعيان (7/ 115).
(3) نفس المصدر السابق.
(4) نفح الطيب (6/ 91).

لأجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرامها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى 479هـ/ 1086م وإنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، فإنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا، فصرنا شعوباً لا قبائل وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقل نصرنا، وكثر شماتنا، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفونش، وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاؤوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذ العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين محمد ﷺ، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحثّ الأمير على إنقاذ الأندلس.

وتأثر المرابطون لمصاب إخوانهم في الدين، وعرض أميرهم قضية مسلمي الأندلس على أهل الحل والعقد عنده، وأجمعوا على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أندلسي الأصل اسمه عبد الرحمٰن بن أسبط أو إسباط، فنصحه المستشار بأن يطلب من المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له: إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، واقتنع الأمير يوسف برأي وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمٰن: صدقت يا عبد الرحمٰن لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك.

(1) دولة المرابطين ص(71).

وكتب ابن أسبط إلى المعتمد بن عباد الكتاب التالي نصه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم من أمير المسلمين وناصر الدين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه الله من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشرع وفي كتاب الله تعالى، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك وابعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله تعالى».

أطلع المعتمد ابنه الرشيد على خطاب الأمير يوسف فقال له: يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب؟ فقال له المعتمد: يا بني هذا قليل في حق نصرة المسلمين، ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المعتمد، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهن بتصرف الأمير يوسف[1] وبعد موافقة المعتمد تجهز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة راغباً في الأجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أماناً لأهل الأندلس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي» وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش ومن الصحراء وبلاد الزاب ومن مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات، وكان أول من نفذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود بن عائشة وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأندلسيين، لأنهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمع لدى رؤيتها.

ولما تكامل الجيش المرابطين بساحل الجزيرة الخضراء ركب الأمير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطي وصلحائهم، ولما ركب واستوى على السفينة رفع

(1) دولة المرابطين، ص(74)، مذكرات الأمير عبد الله صاحب غرناطة ص(102، 103).

يديه نحو السماء مناجياً: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»[1] وسهل الله عبورهم، وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول479هـ حزيران 1086م، وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر، وقام أهل الجزيرة بضيافة المرابطين، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم، وبدأ الأمير يوسف في تحصين الجزيرة الخضراء، ورمم أسوارها وما تصدع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ثم ساروا نحو إشبيلية[2].

سارع المعتمد مع قادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين، ولما التقى بيوسف تعانقا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة في الدين، وتذاكرا نعم الله عليهما، وتواصيا بالصبر والجهاد في سبيل نصرة المسلمين، وكان المعتمد محملاً بالهدايا، وأصدر أوامره لعمال البلاد بجلب الأرزاق لضيافة الجيش المرابطي، وكان المعتمد كريماً جواداً باذلاً للخير.

واستعرض المعتمد الجيش المرابطي فرأى «عسكراً نقياً ومنظراً بهياً»[3].

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق حتى وصل حاضرة المعتمد، فأقام بها ثلاثة أيام للاستراحة ثم قال للمعتمد: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو حيثما كان توجهت»[4].

وأثناء مقام الأمير يوسف في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد[5]، فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله، وأخوة تميم صاحب مالقة، وأرسل ابن صمادح ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه، وسار الأمير الرباني والقائد الميداني نحو بطليوس، فاستقبلهم صاحبها المتوكل بن الأفطس على ثلاث مراحل من المدينة[6]

(1) الأندلس في عهد المرابطين، ص(79).
(2) دولة المرابطين، ص(75).
(3) انظر: الحلل، ص(79).
(4) دولة المرابطين، ص(79).
(5) مذكرات الأمير عبد الله بن رير، ص(104).
(6) دولة المرابطين، ص(80).

وقدم لهم الهدايا والضيافة وعلف الدواب وظهر منه جود وكرم، وأقام الأمير أيام عدة حتى يصل باقي المتطوعين إلا أن أكثرهم لم يصل لانشغالهم بمدافعة النصارى، فتابع سيره الجهادي حتى حط رحالة عند سهل الزلاقة[1] وكان يبعد عن بطليوس ثمانية أميال.

ونظم يوسف بن تاشفين جيشه، فجعل الأندلسيين جيشاً مستقلاً بذاته وأسند قيادته إلى المعتمد بن عباد الذي تولى المقدمة، وأسندت الميمنة إلى المتوكل بن الأفطس، وجعل أهل شرق الأندلس على الميسرة، وباقي أهل الأندلس في الساقة.

أما الجيش المرابطي فتولى داود بن عائشة قيادة فرسانه، وأما سير بن أبي بكر فتولى قيادة الحشم، وبقية المرابطين مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الإسلامي، وعسكر المرابطون مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الإسلامي، وعسكر المرابطون خلف الأندلسيون تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه، وكان تعداد جيش المرابطين والأندلسيين أكثر من 24 ألف جندي[2] وتضاربت الروايات في ذلك.

وكان ألفونسو مشغولاً بمحاصرة سرقسطة ولما وصله الخبر السعيد ارتبك وجزع، وطلب من المستعين بن هود حاكم سرقسطة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار، فامتنع ابن هود لما علمه من وصول المرابطين وقرر ألا يساعد ألفونسو بأي مال يستعين به على قتال المسلمين.

واضطر ألفونسو لرفع الحصار، ورجع مسرعاً إلى طليطلة وأعلن الاستنفار العام، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصارى، وأرسل إلى من وراء جبال ألبرتات فأتته أفواج عديدة من النصارى متطاوعة من أجل الحرب المقدسة، وجند ألفونسو كل من يستطيع حمل السلاح صغيراً أو كبيراً، ونظم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين، أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا ورروديك، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة إثر خلاف مع ألفونس الذي أبقى روديك في القيادة، واحتفظ بقيادة الجيش الثاني وعين على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند وتولى هو القلب[3] وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان

(1) وفيات الأعيان، (ج5/ 29).
(2) دولة المرابطين، ص(81).
(3) انظر: الحلل، ص(34).

كمجموعة، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته.

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبريائه، وقال قولة تدل على تجذر كفره وعتوه وفساد معتقده حيث قال: «بهذا الجيش ألقى محمداً وآل محمد والأنس والجن والملائكة»[1].

«وكانت جموع الرهبان والقسيسين أمام جيوش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجيل والصلبان لإذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفاً»[2].

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المعتمد بن عباد كتاباً جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً، وأمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم»[3].

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في أرضهم ولا بد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه.

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون[4].

لقد انزعج ألفونسو من مجيء المرابطين انزعاجاً كبيراً، حيث شعر بعودة الروح المعنوية إلى أهالي الأندلس الذين كان يسومهم سوء العذاب، يقتل رجالهم ويسبي نساءهم، ويأخذ منهم الجزية، ويحتقرهم ويزدريهم، ويتلاعب بمصيرهم وينتظر الفرصة لاستئصالهم من الأندلس، لتعم النصرانية في سائر البلاد، ويرتفع الصليب على أعناق العباد، وإذا بالمرابطين يربكون مخططاته ويبددون أحلامه.

لذلك أراد ألفونسو أن يوجه ضربة قاصمة لمن كان السبب في استدعاء المرابطين وخصوصاً للفارس المغوار المعتمد بن عباد وقرينه المتوكل بن الأفطس،

---

(1) انظر: الأندلس في عهد المرابطين، ص(83).
(2) انظر: الكامل، (ج6/ 303).
(3) الروض المعطار، ص(88)، نفح الطيب(6/ 96).
(4) ابن الكردبوس ص(93)، روض القرطاس ص(94) نقلاً عن دولة المرابطين، ص(84).

وكان يرى أن نصره يعتمد على تكبيل القوة الداخلية في الأندلس بالهزائم المتتالية والمتلاحقة.

أما المرابطون بعد ذلك سيرجعون إلى وطنهم الأصلي المغرب، وبالقضاء على الأندلس سيسهل القضاء على المرابطين بسبب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد.

ومما ساعد ألفونسو على أن يعيش في تلك الأحلام فتور معظم أهل الأندلس بسبب ترفهم ونعيمهم وجبنهم وحبهم للحياة وهروبهم من الشهادة، كما أن أسباب الهزيمة نخرت في ذلك المجتمع المتهالك.

أما المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس فقد قررا امتشاق الحسام، فمن ظفر عاش سعيداً ومن مات كان شهيداً[1].

وأما المرابطون الذين تربوا على تعاليم الإسلام وأصول أهل السنة والجماعة وصلوا إلى ما وصلوا إليه بعد تربية عميقة، وتكوين فريد وإيمان راسخ ساهم علماء وفقهاء المالكية في ذلك، وعلى رأسهم الفقيه الشهيد ابن ياسين فقد مروا بمراحل صقلتهم وحروب زكتهم، وأصبحوا متشوقين إلى الاستشهاد معتمدين على رب العباد، آخذين بأسباب النصر المعنوية والمادية.

وكان رأي المرابطين أن المعركة في الأندلس مصيرية للأمة الإسلامية وبذلك لا يمكن الاعتماد على شعب مهزوم وقع في أسر المعاصي والذنوب.

وكما أن انتصارهم في الأندلس يرعب أعداءهم وخصومهم في المغرب ويتم بنصرهم إنقاذ الإسلام والحضارة في ذلك البلد البعيد عن العالم الإسلامي.

كان ألفونسو يقود حرباً صليبية شرسة ضد المسلمين ودعمته الكنيسة في روما بالجنود والعتاد والأموال، ورغبت بلدان الإفرنجة بالوقوف مع ألفونسو في حربه المقدسة ضد المسلمين.

إن الجانب المادي عند النصارى كان أعلى بكثير مما عند المرابطين، ولكن الجانب المعنوي عند المرابطين لا حدود له.

وأرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو كتاباً يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب ومما جاء في كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنك نحوت

(1) انظر: دولة المرابطين، د. سعدون عباس، ص(85).

الاجتماع بنا، وتمنَّيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك ﴿وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[1] [الرعد: 14].

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟»[2] وقال لرسول الأمير يوسف: «قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك[3]، وإننا سنلتقي في ساحة المعركة»[4]، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب، وحاول ألفونسو حامي حمى النصرانية في إسبانيا أن يخدع المسلمين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: «إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعد السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين» فكان جواب الأمير يوسف: «اتركوا العين وما أحب»[5] فاعترض المعتمد وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إنما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار»[6].

واستعد المسلمون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المعتمد صائباً صحيحاً ورصدوا تحرك العدو ونحوهم.

وانقض الجيش الذي يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المسلمين من الأندلسيين فتصدى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود بن عائشة الذين أرسلهم يوسف بن تاشفين على عجل لدعم الأندلسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطروا النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثاني وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب

(1) وفيات الأعيان (7/ 116).
(2) دولة المرابطين، ص(78).
(3) روض القرطاس، ص(94).
(4) الأندلس في عصر المرابطين، ص(82).
(5) الحلل الموشية، ص(36).
(6) أعمال الأعلام، تحقيق العبادي، ص(242).

الأندلسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأندلسيين وقومه «المعتمد بن عباد وأهل إشبيلية» وأبلى بلاءً عظيماً وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المعتمد مع داود بن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المسلمون في المعركة صبراً عظيماً سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

وبدأت قوة المسلمين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر معتقداً أن هذه هي قوة المسلمين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلامية، فتقوت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم[1]، وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وإنه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل[2]، ووجد ألفونسو نفسه محاصراً من المسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس ، فانقض عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة» وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكأن العناية الإلهية كانت تحميه[3] وكان فقهاء المسلمين وصالحيهم يوعظون الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدين، وفي هذا الجو

(1) الحلل، ص(42).
(2) ابن الكردبوس، ص(93).
(3) الأندلس في عهد المرابطين، ص(85).

الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان[1].

اندفعوا في المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسرت شوكتهم وانقض أسد من أسود المسلمين على ألفونسو وطعنه في فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين[2].

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذي تابع سيره مع الظلام إلى طليطلة، وصل إليها مغموماً حزيناً جريحاً بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزلاقة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رؤوس القتلى من النصارى فعمل المسلمون منها مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضي مراكش عبد الملك المصمودي، والفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي[3]، وجمع المسلمون الأسلاب والغنائم التي تركها النصارى وراءهم في ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس، وقد عرّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام[4].

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين وهذا نص خطابه: «أما بعد حمداً لله المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل وأكرم خلقه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين 15 رجب وقال: الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين

(1) الروض المعطار، ص(92).
(2) ملوك الطوائف، ص(314).
(3) الروض المعطار، ص(95).
(4) المصدر السابق نفسه.

خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إليها أحوالهم فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة 12 رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المسلمين، وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها، وتعدته قبل أن يتعداها، وانقضت جيوش المسلمين على جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد مشتهرة ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفنش - فلما أبصر النصارى راياتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح وأظلتهم سحائب الرماح ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفنش، وحملوا على المسلمين حملة منكرة فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح، بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقبلت سيل الدماء في هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج.

وولى ألفنش مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في 500 فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتخلص إلى جبل هنالك ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذراً، ويحيد عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفعاً ولا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المسلمين يحمد الله قد ثبتت في وسط المعركة مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة منصوراً لجهاد مرفوع الأعداء، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتصطلم ذخائرها وأسبابها، وتريه رأي العين دمارها ونهبها، وألفنش ينظر إليها نظر المغشي عليه، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار، فتراجعوا حذراً من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد، أبو القاسم المعتمد بن عبادة، فأتى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح، مريض عنه وجراح، فهنأه بالفتح الجليل، وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدي ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة إلا مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيراً.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة 12 رجب 479هـ/ 23 شهر أكتوبر 1086م العجمي[1].

وأرسل المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزف إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحر من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها: «اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية أذفنش اللعين ففتح الله المسلمين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين، فاعلم بذلك من قبل إخواننا المسلمين والسلام» وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمري وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونس من الغدر والآخرة للصالحين[2].

وأصبح يوم الزلاقة عند المغاربة والأندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك: «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فيا له من فتح ما كان أعظمه يوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها».

نتائج معركة الزلاقة:

كانت لمعركة الزلاقة نتائج مهمة من أهمها:

1 - رفع الروح المعنوية لأهل الأندلس وخصوصاً بعد أن أنقذ الله بها سقوط سرقسطة من سقوط محتم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التي لا تنتهي من الجزية وغيرها.

2 - سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم خاصة وأنهم قد هزموا في بدء المعركة ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأندلس.

3 - امتناع الرعية من دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلقهم بالمرابطين.

4 - مهدت الزلاقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

5 - ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع.

---

(1) انظر: الحلل المواشية، ص(45 - 46 - 47).

(2) نفس المصدر السابق، ص(47).

6 - انصياع قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها وتنتظر فرصة الوثوب على المرابطين، وبذلك تكون نتيجة معركة الزلاقة أن جعلت تلك القبائل تخلد إلى السكينة وأعلنت ولائها التام.

7 - عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب وسرَّ العلماء والفقهاء بهذا النبأ السعيد.

8 - أصيب نصارى الإسبان بهزيمة تعيسة أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

9 - جعلت النصارى يرتبون أمورهم ويوحدون صفوفهم ويتنازلون عن صراعاتهم الداخلية.

وغير ذلك من النتائج المهمة التي غيَّرت مجرى تاريخ الأندلس وبلاد المغرب.

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزلاقة عاد إلى إشبيلية، ودعا رؤساء الأندلس إلى اجتماع عام، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي نخر فيهم بسبب اختلافهم فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته. وترك ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر[1].

رابعاً: رجوع الأمير يوسف إلى المغرب:

لقد عدد المؤرخون أسباب رجوع يوسف إلى المغرب وهو لم يجنِ ثمرة الانتصار بعد إلى أسباب منها:

1 - وفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي استخلفه على سبتة وكان مريضاً.

2 - اضطراب الحدود الشرقية بسبب تحالف بني حماد مع عرب بين هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية.

3 - أراد أن يتفقد الولاة والحكام الذين تركهم في المدن والقرى، وينظر في أمور الرعية.

4 - أراد أن يخرج من إلحاح مسلمي الأندلس الذين طلبوا منه تعقب ألفونسو وجنوده حيث إنه رأى أن قواته لا تستطيع أن تسيطر على كل الأندلس لاتساع أراضيها.

---

(1) انظر: الحلل المواشية، ص(45 - 46 - 47).

5 - خشي من إبرهيم بن أبي بكر بن عمر الذي زعم أنه له حق شرعي في استخلاف والده المجاهد الكبير.

إن نظرتي للتاريخ الإسلامي تؤكد لي معنى عظيماً في حياة أمتنا ألا وهو أن المعارك الفاصلة في تاريخها المجيد لا تكون إلا لقوم أقاموا الشريعة على مستوى الشعب والجيش والقادة وهذا المعنى واضح في سيرة المرابطين الذين تدرجوا في مراحلهم وأقاموا شرع ربهم على أنفسهم.

ولهذا أرى أن من أقوى الأسباب على الإطلاق في نصر الله للمرابطين هو تمسكهم وتحكيمهم للقرآن والسنة على مستوى شعبهم ودولتهم وجيشهم وقائدهم، ولذلك يهمنا كثيراً أن نبين أثر تحكيم شرع الله في الأمم والشعوب والجيوش والأفراد.

المبحث الرابع

أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين

تمهيد: إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب تعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: 26].

وسنن الله تتَّضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة في سنته ﷺ فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ﷺ «العضباء» كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم ﷺ كاشفاً عن سنة من سنن الله: «**حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**»[1].

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسَّيْر، وفي الأزمنة من التاريخ والسير.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: 137 - 138].

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكير قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: 101 - 102].

● **ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:**

أولاً: أنها قدر سابق: قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38].

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ناقة رسول الله ﷺ (ج6/ 86)، حديث رقم (2872).

أي أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لا محالة، وواقع لا حيد عنه، ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ثانياً: أنها لا تتحول ولا تتبدل: قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: 60 - 62].

وقال: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: 22 - 23][1].

ثالثاً: أنها ماضية لا تتوقف: قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38].

رابعاً: أنها لا تُخالف ولا تنفع مخالفتها: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: 82 - 85].

خامساً: لا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتّعظ بها المتقون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: 137 - 138].

سادساً: أنها تسري على البر والفاجر فالمؤمنون - والأنبياء أعلاهم قدراً - تسري عليهم سنن الله ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه. وبما أن المرابطين التزموا بشرع الله في كافة شؤونهم ومروا بمراحل طبيعية في حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح بيّن.

---

(1) لقد استفدت من كتاب الحكم والتحاكم في خطاب الوحي للشيخ عبد العزيز مصطفى كامل في بيان أثر الحكم بما أنزل الله.

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية، أما الآثار الدنيوية التي ظهرت لي في دراستي لشعوب الملثمين التي قامت بهم دولة المرابطين أمور منها:

أولاً: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد أن المرابطين منذ زعيمهم عبد الله بن ياسين حرصوا على إقامة شرع الله في أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله تحاكمهم في سرهم وعلانيتهم، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم حتى استخلفهم في الأرض، وأقام المرابطون شريعة الله في الأرض التي حكموها، فمكّن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان.

وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله تعالى.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد هذه السنة ماضية في الأفراد والشعوب والأمم، فيوسف عليه السلام استخلف في الأرض بعد أن ابتُلي فأبلى وظهر منه أنه كان من المخلَصين، وعندما قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54]، عرف أنه قد جاء أوان الاستخلاف، فاستعد لتبعته ونهض لحمل رسالته فقال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55]، وصار بهذا من أهل التمكين: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56].

وقد بين الله تعالى تحقق سنة التمكين في بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: 5 - 6].

وكان بعد وراثة الأرض والاستخلاف فيها أن منّ الله عليهم بالتمكين إنفاذاً لمشيئته السابقة، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: 5 - 6].

وبذلك تتضح هذه السنة في القرآن الكريم كما هي ملموسة في واقع الأمم والشعوب.

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين

قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. أي بدلاً عن الكفار ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من بني إسرائيل[1] فإذا حقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمٰن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: 55] فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدين.

وهذا ما رأيته في دراستي للدولة السنية التي أقامها المرابطون.

ثانياً: الأمن والاستقرار:

كانت بلاد المغرب قبل وصول المرابطين دويلات متنازعة فيما بينها، بل بعض هذه الدويلات لها معتقدات تخرجها عن الملة، كما أن قبائل الملثمين كانت متناحرة فيما بينها، وصراعهم مع الزنوج لم يستقر مما ولد لهم الخوف والإزعاج الشديد.

وبعد أن أكرم الله المرابطين بتوحيد قبائل صنهاجة، وساروا في جهادهم المجيد سيرة حسنة، وتوحد المغرب الأقصى كله، يسر الله لهم الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن دولة المرابطين بعد أن استخلفت ومكن الله لها أعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظ على مكانتها، وهذه سنة جارية ماضية، ضمن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذي ينشدون في أنفسهم وواقعهم، فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]. فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته. إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا

(1) انظر: تفسير الجلالين، ص(466).

﴿يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55]. وإن تحقيق العبودية لله ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن في النفوس على مستوى الأفراد والشعوب.

وهذا ما حدث لقيادات المرابطين وشعبهم الذي انقاد لمنهج رب العالمين.

ثالثاً: النصر والفتح:

إن المرابطين حرصوا على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: 40-41].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدي الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف إعدادها لحمل أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة... إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية، وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: 57].

فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان[1]. إن الله تعالى أيد المرابطين على الأعداء ومنّ عليهم بالفتح، فتح الأراضي وإخضاعها لحكم الله تعالى، وفتح القلوب وهدايتها لدين الإسلام.

إن المرابطين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جلبت لهم الفتح، واستنزلت لهم نصر الله.

إن الحكام والشعوب الإسلامية التي تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها في الدنيا والآخرة.

إن مسؤولية الحكام والقضاة والعلماء في الدعوة إلى تحكيم شرع الله مسؤولية عظيمة يسألون عنها يوم القيامة أمام الله، قال ابن تيمية رحمه الله: «إذا حكم ولاة الأمر

(1) في ظلال القرآن، (ج4/ 2704).

بغير ما أنزل الله، وقع بأسهم بينهم... وهذا من أعظم أسباب تغير الدول كما جرى هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره، ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه، فإن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: 40-41].

فقد وعد الله بنصر من ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم[1].

رابعاً: العز والشرف:

إن عزّ المرابطين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذي به تشرف الأمة، وبه يعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فيه شرفكم[2]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»[3]، فعمر رضي الله عنه كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزاً وذُلاً، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، ولا ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10] يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل[4].

---

(1) مجموع الفتاوى (ج35/ 388).
(2) انظر: تفسير ابن كثير (ج3/ 170).
(3) أخرجه الحاكم في المستدرك في الإيمان (ج1/ 62).
(4) ابن كثير (ج2/ 526).

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8].

إنني عندما مررت بسيرة الإمام ابن ياسين ذكرت وصفه بأنه ذو مهابة عظيمة في نفوس أتباعه ونال شرفاً وعزة في قومه.

وعندما مررت بسيرة الإمام أبي بكر بن عمر، ذكرت أنه إذا ركب للجهاد ركب معه 500 ألف من قومه يجاهدون معه.

وعندما ذكرت بسيرة الأمير يوسف بن تاشفين ذكرت وصف له كأنه خُلِقَ للزعامة.

ورأيت في سيرة هؤلاء الأبطال عزًا وشرفاً نالوه بالاستعلاء على شهوة النفس وبالاستعلاء على القيد والذل، كان استعلاؤهم على الخضوع الخانع لغير الله واضحاً في سيرتهم العطرة، كانت حياتهم خضوع لله وخشوع، وخشية لله وتقوى ومراقبة لله في السراء والضراء، وهذا هو سر عزهم وشرفهم في تاريخنا الإسلامي المجيد.

لقد عاش المرابطون في بركة من العيش، ورغد من الحياة الطيبة التي وصلوا إليها بإقامة دين الله.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96].

خامساً: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل في عصر المرابطين وانحسرت الرذائل فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة، متطلعاً إلى ما عند الله من الثواب، يخشى من عقاب الله لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه إلى ما يحييه من الإيمان والقرآن وسنة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله، ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة المرابطين فهي سنن من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير فأي شعب يسعى لهذا المطلب

الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراده ودولته وحكامه.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن التمكين، وفقه ومراعاة التدرج والمرحلية، والانتقاء من الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن الانتصارات العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه، وزكى نفسه، ولهذا لم يأت فتح الزلاقة من فراغ، لقد جاهد المرابطون في الأندلس وحققوا نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً في معركة الزلاقة وأنقذ الله بهم المسلمين.

المبحث الخامس

الأندلس بعد الزلاقة

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب للأسباب التي ذكرتها، تولى قيادة المرابطين القائد الميداني سير بن أبي بكر الذي واصل غاراته الناجحة مع أمير بطليوس على أواسط البرتغال الحالية مما يلي تاجة وقد أثخنت قواته مع قوات المرابطين في تلك البقاع.

كما وجه المعتمد بن عباد ضربات موفَّقة بقيادته على عدة مدن حول طليطلة ثم اتجه نحو أرض مرسية، حيث استقرت جموع الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور في أحد الحصون القريبة التي تشن غاراتها على مدن المسلمين وخاصة مدينة المرية إلا أن المعتمد انهزم واضطر أن يلتجىء إلى قلعة لورقة في كنف واليها محمد بن ليون ثم توجه نحو قرطبة تاركاً مرسية لمصيرها.

وبدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذي أربك مدن شرق الأندلس متخذين من حصن لبيط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزاً لشن الغارات على أراضي المسلمين.

فلم يمض عام واحد على هزيمة ألفونسو حتى عاد نشاطه وجيشه ونقل مقر العمليات إلى شرق الأندلس الذي خيمت عليه الفرقة السياسية.

بعكس غرب الأندلس الذي كانت تحكمه مملكتان قويتان هما مملكة إشبيلية وبطليوس تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على رأسها القائد العظيم سير بن أبي بكر[1].

تأذى أهل غرب الأندلس من النصارى الحاقدين فتوافدت وفودهم على الأمير يوسف وخصوصاً أهل بلنسية ومرسية ولورقة يصفون للأمير يوسف ما نزل بهم على أيدي النصارى الذي يتحكمون في حصن لبيط.

---

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(62).

وعبر المعتمد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف لرغبته، تَمَّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة 481هـ (1088م) ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، ثم تحرك الأمير يوسف إلى مالقة في صحبة أميرها تميم بن بلقين، كما لحق الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح، فضلاً إلى المعتمد بن عباد، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوى ابن الأفطس صاحب بطليوس، وتوجهت تلك الجموع لضرب الحصار على حصن لييط الذي كان يسكنه ألف فارس واثني عشر ألفاً من المشاة من جنود النصارى الحاقدين أصحاب النزعة الصليبية الانتقامية، واستبسل النصارى في الدفاع عن الحصن وكانوا يخرجون ليلاً للانقضاض على المسلمين وإلحاق الخسائر بهم.

واستمر الحصار بدون جدوى، وظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف الذي ساءه ذلك كثيراً.

وشكى المعتمد بن عباد للأمير يوسف خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه الأموال لألفونسو السادس تقرباً إليه، وظهرت المشاكل بين أبناء بلكين عبد الله وتميم للأمير يوسف، وكأن لا عمل له إلا حل المشاكل والمنازعات بين الأطراف المتنازعة.

وتضايق الأمير يوسف من خيانة ابن رشيق الذي دفع أموالاً طائلة لألفونسو وعرض الأمر على الفقهاء والعلماء الذين أفتوا بإزاحته من حكمه وتسليمه للمعتمد واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذي أجابه بأنها أحكام الدين ولا يستطيع مخالفتها[1].

وأمر القائد سير بن أبي بكر باعتقاله وتسليمه للمعتمد مشترطاً عليه إبقاؤه حيًا[2].

وكانت لفتوى الفقهاء عند قادة المرابطين مكانة عظيمة يضعونها فوق كل اعتبار.

(1) مذكرات الأمير عبد الله، ص(112).

(2) انظر: دولة المرابطين، ص(108).

وفرّ جيش ابن رشيق من المعركة، ومنع الزاد على جيش المرابطين ومن معه من الأندلسيين الذين يحاصرون الحصن، فارتفعت الأسعار، ووقع الغلاء واضطربت الأحوال، وعندما علم ألفونسو بالخلافات التي وقعت حشد جيشاً من أجل فك الحصار على أتباعه في حصن لييط، فاضطر الأمير يوسف إلى فك الحصار خوفاً من معركة خاسرة غير مأمونة النتائج خاصة بعد الذي رآه من حكام الأندلس وتآمرهم واتصالهم بالعدو، ورجع الأمير يوسف إلى لورقة وترك أربعة آلاف مرابطي بقيادة داود بن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية وبعث بجنود إلى بلنسية بقيادة محمد ابن تاشفين[1].

واستطاع ألفونسو الوصول للحصن وأخرج من نجا من الموت، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ بالحصن لأنه يتطلب حماية كبيرة معرضة لمصير سابقاتها فقرر إخلاءه وتدميره واسترجع ابن عباد الحصن بعد أن أصبح أطلالاً.

لقد أيقن الأمير يوسف أن أمراء الأندلس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم في جهاد، وبعد رجوع الأمير يوسف في عام 482هـ/ 1849م عرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأندلس للمغرب.

وكان فقهاء وعلماء الأندلس يؤيدون ذلك، وكذلك فقهاء وعلماء المغرب والمشرق، وأرسل الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي[2] فتوى تؤيد عمله الجليل من أجل توحيد صفوف المسلمين.

وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة، لتدخل تحت الخلافة الإسلامية في بغداد.

لقد كان ملوك الطوائف يهتمون بمصالحهم الخاصة لا ينظرون إلى عزة أمتهم حتى وصفهم ابن حزم بقوله: «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا»[3].

وكان المسلمون في الأندلس يتمنون أن ينضموا إلى دولة المرابطين وعبر عن ذلك فقهاؤهم وعلماؤهم وبرز الفقيه القاضي ابن القلاعي «قاضي غرناطة» الذي

(1) ابن خلدون، العبر، (ج6، ص187).
(2) ابن خلدون، العبر، (ج6/ 187).
(3) محمد بن عبد الله عنان: دول الطوائف، ص(406)، نقلاً عن رسالة ابن حزم.

توطدت العلاقة بينه وبين يوسف بن تاشفين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة إذ كان أحد أعضائها وكان يرى في الأمير يوسف صلاحاً وعدلاً وحزماً.

حاول الأمير عبد الله ابن ملك غرناطة أن يتخلص منه فاعتقله ثم اضطر إلى إطلاق سراحه، فهرب إلى قرطبة ومن هناك اتصل بالأمير يوسف وأطلعه على خفايا من الأمور، وأفتى بخلع ملوك الطوائف وتفاعل مسلمو الأندلس مع هذه الفتوى الموفقة[1].

(1) دولة المرابطين، ص(113)

المبحث السادس

فتوى في جواز ضم الأندلس بالقوة والقضاء على ملوك الطوائف

أرسل الإمام أبو بكر بن العرب المالكي إلى الإمام الغزالي كتاباً يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتيا في ذلك، قال الإمام أبو بكر العربي: «وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق، ولطول باعه في العلم ورحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي، فاستدعينا منه فتيا وكتاباً، واختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها لكن أنبه على معناها وهو: في علم الإمام ما ذكر في وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأندلس والعدوة، وما أوضحت لديه من إعزاز الدين، والذب عن المسلمين، وهو حميري النسب معه المرابطون، وقد وقفوا أنفسهم على الجهاد، وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمائة، عدة ثوار تسوروا على البلاد، فضعف أهلها عن مدافعتهم، وتلقبوا بألقاب الخلفاء وخطبوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه، واستبانوا الفساق من الأرقاء والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضاً، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه، وعند ذهاب شوكة المسلمين، وحينما انكشف للنصارى ضعف المسلمين، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين، طلبوا المعاقل وأخذوا بالحرب كثيراً منها من غير مؤونة ولا مشقة، ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المسلمين ووصل إلى البحر، فاستاء بعض الرؤساء وفاء للمشركين، وحقداً على المسلمين في استدعائهم له، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله نصراً، وألحم الكفار السيف، ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح فتهيبه العدو، وتحصن منه، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس، حالفوا النصارى أو صاورا معهم إلباً،

ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد، والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا: لا جهاد مع إمام من قريش، ولست به، أو مع نائب عن الإمام، وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العباسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أو ليست الخطبة في جميع بلادي له؟ فقالوا: ذلك احتيال. ومردوا على النفاق، فهل يجب قتالهم؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم؟ وهل على المسلم حرج في قتالهم؟ وهل على الإمام العباسي أن يبعث بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه، وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبدًا، وإنما خادم أمير المؤمنين المستظهر، وهذا أشهر أن يؤكد بالتحلية، وأظهر من أن يجدد بالتزكية.

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد الأوحد أبي حامد أتم الأجر، وأعم الشكر في الإنعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله تعالى[1].

أولاً: فتوى الإمام الغزالي في موقف كل من يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف والخلافة العباسية؟.

فأجاب الإمام الغزالي رحمه الله: «لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغني عن شهادته عن غيره وعن طبقة من ثقات المغرب الفقهاء وغيرهم، من سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله ما أوجب الدعاء لأمثاله، ولقد أصاب الحق في إظهار الشعار الإمامي المستظهري، حرس الله على المستظهرين ظلاله، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحق، وإن لم يكن بلغهم صريح التقليد من الإمام، أو تأخر عنهم ذلك لعائق، وإذا نادى الملك المستولي بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام، ومخالفته هي مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي وقد قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۚ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: 9]. والفيئة إلى أمر الله، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية، فكل متمرد على

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب، د. أحمد العبادي، ص(479 - 480).

الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته، ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين وأوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ويتركوا المخالفة، وجب الكف عنهم، وإذا قاتلوا، لم يجز أن يتتبع مدبرهم، ولا أن يُذَفَّف[1] على جريحهم بل متى سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكف عنهم، أعني عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين، وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لا ضمان فيها، وحكمهم في الجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، والمستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة حكم الباغي على نائب الإمام، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، في أن يخطب عليه، وينادي بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه.

وإن توقف في كتبه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين فلا رخصة في تركه، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه، وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لا تنطفىء إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذلك ذلك. فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن. قال عمر رضي الله عنه: «لو تركت جرباء على ضفة الفرات، لم تطل بالهناء، فأنا المسؤول عنها يوم القيامة» قال سليمان بن عبد الملك يوماً وقد أحدق به الناس: «قد كثر الناس» فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين» يعني أنك مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته. فلا رخصة في التوقيف عن

(1) لا يذفف: لا يجهز.

إطفاء الفتنة في قرية تحوي عشرة، فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع، المواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق، ولم يبعد أن يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم، وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه، ويسد في هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فساد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصور، أو تقتضي في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها، والمعتصمين بعروتها، والقائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض، وحكم من بغي عليهم، والله أعلم[1].

يتضح لي من فتوى الإمام الغزالي أن رأيه في قتال يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف مبني على كون أولئك الملوك من البُغاة والخارجين عن سلطة الدولة المرابطية التابعة للخلافة الإسلامية.

وبهذا يتضح أن الفقهاء والعلماء رأوا ضرورة ضم الأندلس لقيادة المغرب الأقصى بعد أن فرط أمراء الأندلس في أمور الشرع ومصالح الرعية وحالفوا النصارى ضد إخوانهم المسلمين.

ولا شك في أن ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف صحيح من الناحية الشرعية والاستراتيجية العسكرية والمنطلقات السياسية.

بل في رأيي أن وجود ملوك الطوائف مفسدة عظيمة، والسعي لإزالتهم خطوة نحو توحيد الصفوف ونجد كُتاباً من الغرب وأذيالاً لهم من أبناء المسلمين يصفون ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف بأنه خروج عن الإنسانية، ودليلاً على الهمجية، حسب وجهة نظرهم المشوشة، وتصورهم المغلوط، أما بالنسبة للمؤرخ

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد عبادي، ص(484).

المسلم فإن ما قام به يوسف يعتبر عملاً عظيماً قدمه للأمة، وحفظ به الإسلام في الأندلس من انهيار محقق، وضبط الأمور بعزم وحزم بعد فوضى وضياع وخنوع واستسلام مارسه ملوك الطوائف دون اهتمام بدين أو شعب أو عقيدة.

لقد تميز يوسف بن تاشفين بوفائه التام للعهود، وابتعاده عن الأطماع الدنيوية، وحرصه على إعزاز الدين، وإزاحة العوائق التي تحول دون وحدة المسلمين، ولذلك أقدم على الخطوة المباركة من أجل توحيد الأندلس، وضمها تحت قبضة دولته الميمونة التابعة للخلافة العباسية السنية.

إن كثيراً من الحكام المعاصرين المتسترين بالدين، والذين يحالفون النصارى الحاقدين واليهود الماكرين وأشياعهم وأتباعهم الكافرين واجب على الدولة الإسلامية السنية الفتية أن تعمل على تخليص المسلمين من قبضتهم وتضمها إليها، وتسعى من أجل تحقيق ذلك بكافة الأمور الشرعية المعروفة.

وإذا تعذر وجود دولة سُنية لها هموم إسلامية وتطلعات شرعية فعلى الحركات الإسلامية أن توحد صفوفها للوصول إلى هذا الهدف المنشود، ومن ثم السعي لتوحيد الأمة تحت دولة إسلامية تقوم على عقيدة التوحيد، وتحكمها شريعة الرب المجيد وإذا ما وصلت أي حركة معاصرة إلى ذلك الهدف المذكور تجد نفسها تحتاج إلى فتاوى شرعية وتجارب لتستأنس بها في مسيرتها المباركة ولذلك أرى من الفائدة العميمة والخبرة الرشيدة دراسة الدول الإسلامية التي قامت، واجتهادهم في الحروب، وتربيتهم للشعوب، لنسترشد بها ولنطوِّرها على حسب متطلبات المرحلة التي نمرُّ بها.

ولذلك نجد أن الأمم عموماً عندما تعد طلائع قيادية تهتم بدراسة الشعوب والحركات التحررية، والثورات الإنسانية لتكون رصيداً لأولئك الذين يعدون ويربون على قيادة أمتهم في المستقبل المنظور.

إن العقلية الضيقة المتحجرة عندما تكون في سدة القيادة لا تستطيع أن ترتقي بجنودها، وتجد نفسها تصطدم اصطداماً عنيفاً مع مستجدات الحياة ومشاكلها المعقدة.

إن تجارب التاريخ الإسلامي تُكسب الطلائع القيادية للحركة الإسلامية المعاصرة خبرات مهمة في مجال البناء والحركة والتنظيم والتكوين والتنفيذ والتمكين.

إن دروس التاريخ تعلمنا أن العلماء الربانيين، والفقهاء العاملين لهم مكانة في نفوس شعوبهم، ومهابة عند حكامهم، ولفتاويهم شأن عظيم في شؤون الحكم والدول والحروب وعزل الملوك وتولية غيرهم... إلخ.

المبحث السابع

العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

بعد طلب العلماء والفقهاء من الأندلس والمغرب والمشرق من الأمير يوسف أن يضم الأندلس إلى دولة المرابطين الفتية التابعة للخلافة العباسية السنية، عبر الأمير يوسف بقوة ضخمة عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طليطلة وأرسل فرق من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاع أن يفتح غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذي تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيراً إلى المغرب، واستقر في أغمات بالقرب من مراكش[1].

وحاول المعتمد بن عباد والأفطس أن يثنيا الأمير يوسف عن عزمه، ولكنه رفض مقابلتهما وأيقنوا أن زوالهم قريب.

وألقى المرابطون القبض على تميم بن بلكين والي مالقة وأرسل إلى إفريقية، ثم رجع الأمير يوسف إلى سبتة وتولى القيادة السياسية والعسكرية القائد المحنك سير بن أبي بكر، وبدأ الأمير يوسف في إرسال الجيوش من المغرب إلى الأندلس للقضاء الكلي على ملوك الطوائف، وأصبحت القوة المرابطة في الأندلس قوة ضاربة لا يستطيع أحد الصمود أمامها وقسم الأمير يوسف جيوش المرابطين إلى أربعة أقسام:

1 - جيش بقيادة سير بن أبي بكر توجه إلى إشبيلية.

2 - وجيش سار إلى قرطبة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج ووالياها، آنذاك، ولد المعتمد الفتح أبو النصر.

3 - وسار جرور اللمتوني إلى أرض رندة بجيش ثالث، وفيها ولد آخر للمعتمد وهو يزيد الراضي بالله.

---

(1) انظر: معركة الزلاقة، ص(62).

4 - وسار أبو زكريا بن واسندوا إلى المرية التي فيها المعتصم بن صمادح، صديق المعتمد الحميم.

وبقي يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطي لكي يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك[1].

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر 484هـ/ 1091م بعد مقاومة عنيفة من أبناء المعتمد اللذين قتلا «المأمون ويزيد الراضي» ووصل المرابطون إلى ضواحي طليطلة مهددين ملوك النصارى، واستولوا على قلعة رباح التي فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة، واشتد الخوف بالمعتمد بن عباد الذي أرسل إلى ألفونسو يستنجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهم.

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول 484هـ/ 1091م، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التي أرسلها ألفونسو بقيادة الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مترجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصراً كبيراً مبيناً، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار، وكان سير بن أبي بكر يقود الجيش المحاصر، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب 484هـ/ 1091م وكانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة حزينة، وكانت عبرة لتقلب الدهر، وذلك أن الرجل الذي لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصاير إسبانية، والذي كان يحكم سواد النصف الجنوبي لشبه الجزيرة، والذي يرجع إليه سبب استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة، والذي استدعى المرابطين إلى الأندلس، اختتم حياته الحافلة بالأحداث في غمرة البؤس والحزن في أغمات المغرب فقد قبض عليه بعد سقوط إشبيلية، وعلى نسائه وأبنائه وبناته - وهم نحو مائة - وأرسلوا إلى مراكش[2] وفي طريقه تألم المعتمد من قيده وضيقه وثقله فقال:

تبدلت من ظل عزّ البنودِ بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد

(1) انظر: معركة الزلاقة، ص(62).
(2) انظر: معركة الزلاقة، ص(64).

وقد صار ذاك وذا أدهما يعض بساقي عض الأسود

لقد أطنب الشعراء والمؤرخون وأهل الأدب في سيرة المعتمد بن عباد وسبب ذلك أمور كثيرة وأهمها في نظري أن قضيته غريبة، وشخصيته عجيبة، ومرّ بأمور رهيبة وكانت سيرته مليئة بالمتناقضات فهو الذي قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير» وهو الذي استعان بالنصارى، وأجلب خيلهم ورجالهم ضد المسلمين، وسيرته تبين لنا سنن الله في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، وإعطاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

وتوفي المعتمد بن عبّاد في أغمات سنة 488هـ رحمه الله تعالى.

ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه، فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء[1].

من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخاطب قيده فقال:

قيدي، أما تعلمني مُسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شرابٌ، واللحم قد أكلته ولا تهشم الأعظما
يُبصرني فيك أبو هاشم فينثني، والقلب قد هُشما
ارحم أخياتٍ له مثله جرّعتهن السُّم والعَلقما

وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدى معاركه:

لما تماسكت بالدموع وتَنَهْنه القلبُ الصديع
قالوا الخضوعُ سياسة فليبدُ منك لهم خُضوع
وألذ من طعم الخُضُوع على فمي السّمُّ النقيع
أتسلبُ عني الدُّنا ملكي وتُسلم القلبَ الضُّلوع
قد رُمتُ يوم نزالهم أن لا تحصنني الدروع

(1) وفيات الأعيان (ج5/ 37).

وبـرزت لـيـس سـوى الـقـمـيـص عـن الـحـشـى شـيء دَفُـوع
أجـلـي تـأخـر، لـم يـكـنْ بـهـواي ذُلـي والـخُـضـوع
مـا سـرت قـطُّ إلـى الـقـتـال وكـان فـي أمـلـي الـرجـوع
شـيـم الأولـى إنـا مـنـهـم والأصـل تـتـبـعـه الـفُـروع[1]

ولما توفي في أغمات رثاه الشعراء بقصائد معبرة عن المشاعر الإنسانية الدفينة ومن رثاه شاعره المخلص أبو بحر عبد الصمد بقصيدة طويلة أجاد فيها، وأولها:

مـلـك الـمـلـوك، أسـامـع فـأنـادي أم قد عدتك عن السماع عوادي
لما نقلت عن القصور ولم تكن فـيـهـا كـمـا قـد كـنـت فـي الأعـيـاد
أقبلت في الثرى لك خاضعاً وجعلت قبرك موضع الإنشاد[2]

لقد كانت محنة المعتمد بن عباد عظيمة، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة وأنه صحراوي بدوي نزعت الرحمة من قلبه، واستدلوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأندلس وتخلص منهم.

والواقع يقول: إن ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس، وتردد كثيراً قبل العبور، وعفَّ عن الغنائم بعد الزلاقة وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس، ولم يأخذ منها شيئاً، وكانت عودته، ثم عاد في الجواز الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف الهزلي، وتحالف بعضهم مع ملوك النصارى، ولما اشتد الخطب على أهل الأندلس وأفتى العلماء بخلع ملوك الطوائف حرصاً على سلامة الدين والعقيدة قرر الأمير يوسف أن يضع حداً لمهزلة ملوك الطوائف لقد آن «من أجل الشريعة والمصلحة العظمى للأمة» لهذه الدويلات الهزيلة الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي، وكما قال الشاعر محمود غنيم:

من عالج الباب العصي فلم يلن ليديه، حطَّم جانب المصراع

فقد شغله هؤلاء الأمراء المتفرقون عن الجهاد والفتوحات والمرابطة في سبيل الله لضعفهم وفرقتهم، فلقوا جزاء خيانتهم وفرقتهم، وابن تاشفين خص الأمراء

---

(1) التاريخ الإسلامي، للذهبي. حوادث ووفيات، مجلد (481 - 490هـ)، ص(271).
(2) وفيات الأعيان (ج5/ 37).

وحدهم بشدته وعقابه وعفا عن الشعب المسلم، لأن التناقض جلي بين الشعب الذي تعلق بالمرابطين وبالأمير يوسف لعدله وحزمه وجهاده، والذي حرص على رفع المظالم والضرائب والمكوس عن كاهل الشعب الذي طلب من ملوكه الاتحاد في وجه النصارى، وبين الأمراء والملوك الذين آثروا التفرق والخلاف، حبًّا في الحكم، وحفاظاً على مصالحهم الشخصية.

وهذا الذي قام به الأمير يوسف، وإزاحة الملوك من أعظم حسناته ومآثره الخالدة في تاريخه المجيد الذي تعتز به أمتنا العريقة.

وبسقوط إشبيلية تزعزعت باقي المدن والحصون، وأصبحت غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية تحت حكم المرابطين في وقت لم يتجاوز ثمانية عشر شهراً.

ولما سقطت المرية بيد داود بن عائشة، هذا القائد المجاهد المرابط في سبيل الله المنصور بإسلامه ودينه وصفاء عقيدته وحفظه للعهود، وأصل سيره الموفق مع جنوده البواسل، وافتتح مربيطر وبلنسية وشنتمرية ولم تغن أمراءهم معاونة الكمبيادور وفرسانه، فبلنسية كان بها يحيى بن ذي النون «القادر»، وعلى الرغم من أنه كان منضوياً تحت حماية ملك قشتالة، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة منهم، وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر على الرغم من كل هذا سقطت بلنسية بيد المرابطين أصحاب الأيادي المتوضئة، والقلوب الطاهرة، والضربات الفتاكة لكل جبار عنيد.

واستمر داود بن عائشة في فتح حصون وقلاع مدن شرق إسبانيا تحفه العناية الإلهية، وتنزل عليه الفتوحات الربانية ويخط للمغاربة وللأمة الإسلامية تاريخاً مجيداً باقياً على مر العصور والأزمان، واضحة معالم العقيدة والإيمان في نحته وكتبه بماء الذهب الصافي.

أما القائد الرباني والفارس الميداني سير بن أبي بكر فكان جهاده الميمون في غرب الأندلس حيث زحف إلى بطليوس وأميرها يومئذٍ محمد بن الأفطس «المتوكل» بعد أن فتح إشبيلية كما سلف، فاستولى على شلب ويابرة، ثم احتل بطليوس في صفر 487هـ - آذار (مارس) 1094م.

وفي الوقت الذي سقطت بطليوس، استطاع المرابطون أن يفتحوا جزر البليار،

التي كان واليها يومئذٍ من بني شهيد أتباع بلنسية ودانية، وأحسن المرابطون صنعاً بفتح الجزر الشرقية «بليار» في الوقت الملائم، قد كانت منعزلة تعيش تحت هيمنة الأسطول النصراني، وقد تم الفتح على يد القائد البحري ابن تافرطست.

وبذلك أصبحت إسبانيا المسلمة تحت قبضة دولة المرابطين الفتية سنة 487هـ/ 1094م ونستثني من ذلك ولاية سرقسطة التي كان واليها أحمد بن هود «المستعين بالله» الذي أبلى بلاءً حسناً في جهاد النصارى وظهرت فيه شهامة ورجولة أقنعت الأمير يوسف على إبقائه في ملكه، وتحالف ابن هود مع إخوانه في العقيدة ضد أعدائهم في الدين، وكان سداً منيعاً في الثغور الشمالية وقد كلف النصارى خسائر هائلة في الأموال والأرواح.

واستطاع النصارى أن يحتلوا مدينة «بلنسية» عام 487هـ بقيادة القائد النصراني الكمبيادور الذي أمن قاضيها «ابن جحاف» ثم أحرقه بالنار، وعمل المرابطون على إرجاع بلنسية والحصون التي وقعت في يد النصارى، وتمكنوا من تحرير بلنسية عام 495هـ.

والجدير بالذكر أن بابا الفاتيكان أفتى لأهل إسبانيا ومن حولهم من الإفرنج أن قتالهم في الأندلس ضد المسلمين جهاداً مقدساً ولذلك لم يشارك الإسبان في حروب النصارى الصليبية في شرق العالم الإسلامي في هذه الفترة.

لقد كانت سياسة الإسبان في حروبهم للمسلمين صليبية النزعة، همجية الخلق، خالية من الأخلاق، ممزوجة بالغدر بعيدة عن العلم والحضارة.

وكانت سياسة المرابطين في حروبهم وجهادهم مبنية على نشر الإسلام ومكارم الأخلاق في أطر حضارية نابعة من مشكاة الوحيين: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1].

(1) انظر: معركة الزلاقة، ص(68).

المبحث الثامن

الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

لما أصبحت إسبانية المسلمة تحت حكم المرابطين بما في ذلك سرقسطة التي حكمها بنو هود، عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشفين العبور الرابع سنة 496هـ/ 1103م بعد استرداد بلنسية بعام واحد، ينبغي تنظيم شؤونها، وليطلع على حسن سير الإدارة، ودعا القادة والولاة وزعماء الأندلس، وشيوخ القبائل المغربية التي تدين بالطاعة له إلى الاجتماع في قرطبة، وعين ولده الأصغر علياً «أبا الحسن» ولياً للعهد، فقد ظهرت مواهبه ونجابته ورجاحة عقله ولمس والده فيه الخصال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة[1].

نص ولاية العهد للأمير علي بن يوسف:

عهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهوراً ببلاغته، وهذا هو النص: «الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة.

أما بعد: فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب بن تاشفين لما استرعاه على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظمة، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة، كيف في هذه الأمور العائدة في المصلحة الخاصة والجمهور، وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وحضه الله بها من النظر في الأمور الدينية الشريفة، قد أعزّ الله رماحه وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى، ودعاه لما كان إليه ودعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي، فرضوه لما رضيه

---

(1) انظر: معركة الزلاقة، ص(71)

واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلاً أن يسترعي فيما استرعاه، فأحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينهما وبين المشروط قبل، وأجاب حين دُعي، بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره، وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت النصيحة مرامي قصية، يقول في ختامه شروطها وتوثيق ربوطها، كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضي إمامتها على البعيد والقريب وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب وذلك في عام 495هـ/ 1101م[1].

أ - وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه علياً، بما يلي:

ألا يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة.

وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين، قوامه سبعة عشر ألف فارس، يطمعون على حساب الدولة يوزعون كما يأتي: أربعة آلاف في ولاية سرقسطة، وسبعة آلاف في إشبيلية، وثلاثة آلاف في غرناطة، وألف في قرطبة، والباقي قدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية، ويحسن أن يعهد إلى مسلمي الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى، فهم لهم معرفة أوسع وخبرة أكبر على مقاتلة النصارى من المغاربة، وأن يعمل على تشجيع الأندلسيين على روح الجهاد وأن يكافىء المتفوقين في الحرب منهم بالخيل والسلاح والثياب والمال.

ونصح أبو يعقوب ابنه أن يعامل أهل الأندلس وخصوصاً قرطبة بالرفق واللين، وأن يقوي علاقته الأخوية مع بني هود الذين هم طليعة الأندلسيين في محاربة النصارى، ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس وقسمها إلى ست ولايات هي إشبيلية، غرناطة، قرطبة، بلنسية، مرسية، وسرقسطة، عاد ابن تاشفين إلى مراكش.

ب - لقد مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث:

1 - مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة.

---

(1) الزلاقة ص(71 - 72). انظر: ابن الخطيب، الإحاطة (2/ 519 - 520).

2 - مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد، ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

3 - مرحلة ضم الأندلس إلى المغرب، فوضعوا حداً لمهزلة ملوك الطوائف.

المبحث التاسع

آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على ملوك الطوائف

1 - إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وهلاكاً وعذاباً في الآخرة، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

لقد كانت في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في المعركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه، وأصبح في ضنك من العيش: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

2 - أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه، وأصابهم ما أصاب بنو إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: 78 - 79].

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله ﷺ: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد**

الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعننكم كما لعنهم»[1].

3 - إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53].

كما أنَّ المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله، وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت، ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا ما رحم الله، وتركوا الحق وانقادوا للضلال، وابتلوا بالنفاق وفضحهم الله بذلك وحرموا التوفيق والرجوع للصواب، وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله تعالى.

4 - لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

5 - وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس، وحرموا من التمكين، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

6 - إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب.

---

(1) أبو داود كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف، رقم الحديث (4670).

7 - إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض العلماء واستنصروا إخوانهم في الدين، والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم، ثم خلّص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين، منقادين لشريعة رب العالمين.

8 - إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

الأول: معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

ثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً.